منابر العلم والثقافة في إفريقيا وجنوب الصحراء

«حاضرة تمبكتو»

أ.سليماني يوسف

مقدمة

إن الانتشار السلمي للإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء سواء عبر مر العصور ومن مختلف الجهات (المغرب العربي وادي النيل، البحر الاحمر وباب المندب) لم يكن انتشاراً سطحيا بل كانت تأثيراته وانعكساته أكثر بكثير مما جاء في كتابات المؤرخين الغربيين، حيث أنّه وفي وقت ليس بكثير ظهرت العديد من المدن والحواضر المصبوغة بالصبغة العربية الإسلامية وفي مختلف جهات القارة الإفريقية ففي شرق القارة مثلا ظهرت العديد من المدن العربية مثل مقديشو وزنجبار وماليندة وفي بلاد وادي النيل برزت الدارفور والكردفان وسلطنة الفونج، أما في إفريقيا جنوب الصحراء فكان تأثير انتشار الإسلام أكبر والدليل على ذلك قوة واتساع مساحة الممالك الإسلامية التي ظهرت مابين القرن الثالث عشر والسابع عشر الميلادي وعلى رأسهم مملكة مالي وسنغاي والهوسا والكانم والبرنو، ومن جهتها منابر العلم لم تكن غائبة حيث سرعان ما ظهرت العديد من الحواضر الثقافية التي أصبحت هي مبعث العلم والعلماء، وفي مقدمتهم مدينة تمبكتو التي تأسست في القرن الحادي عشر ميلادي وحضيت باهتمام كبير من قبل ملك مملكة مالي منسا موسى والذي عندما رجع من رحلته من الحج عام 1327م أولاها اهتماماً كبيرا حيث شيد بها أكبر مسجد بالمنطقة باعتماده على مهندسين معماريين كان قد اصطحبهم من بلاد الحجاز، إضافة إلى اصطحابه لمجموعة من العلماء والفقهاء، حيث وفي وقت قصير أصبحت تمبكتو هي ملجأ كل

طلبة العلم في وقته وبعده حتى برز فيها العديد من العلماء والمؤرخين تركوا بصماتهم في تلك البلاد.

نشأة وتوسع مدينة تمبوكتو

تقع مدينة تمبكتو على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بما يعرف بمنحنى نهر النيجر[1]عند خط 17.4 درجة شمال خط الاستواء[2]، وقد تأسست هذه المدينة على يد قبائل توارق مقشران الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي[3]، حينما اتخذوا من مكانها مشتى لهم في حدود ذلك التاريخ، أما خلال الصيف فإنهم يعودون إلى (أروان) حيث مرابعهم الأصلية ويقال إن اسمها أخذته من اسم العجوز التي كان الطوارق قد عهدوا إليها بالبقاء في ذلك المكان، حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية، وكانت تحرص لهم في بعض المخازن والبيوت ثم ما لبث بعض التجار أن عقدوا سوقا في ذلك المكان واخذوا فيه مستودعات للبضائع وبذلك أخذت المدينة طريقها إلى النمو ولكن دون نظام[4].

ومع مرور الوقت أصبحت مدينة تمبكتو ملتقى القوافل التجارية من مختلف مناطق جنوب وشمال الصحراء الإفريقية وذلك بحكم الموقع الوسطي الذي كانت تحتله حيث يمر بها العديد من الطرق التجارية وأهمها هي:

- الطريق الذي ينطلق من سجلماسة ثم إلى ولاتا ومنها إلى تمبوكتو وجني وغاو.
- طريق ينطلق من تلمسان يمر بغرداية وتوات وينتهي إلى تمبوكتو.
- طريق ينطلق من تغازا الى تمبكتو والمعروف بطريق الذهب.
- طريق من واحة الجريد بتونس ويمر بوادي سوف وورقلة ويتنهي إلى تمبوكتو وغاو.

1)- الدالي هادي المبروك: التاريخ السياسي والإقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن 15م إلى بداية القرن18م. الدار المصرية اللبنانية، القاهرة،1999م،ط1،ص307.

2)- شعباني نور الدين:علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية بين القرنين الرابع والتاسع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2006م، ص117.

3)- السعدي عبدالرحمن: تاريخ السودان باريس، 1981م،ص20.

4)-زبادية عبدالقادر: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989م،ص61.

- طريق ينطلق من مصر ويمر بواحو سيوم وزوايلة وتادمكة وينتهي إلى تمبوكتو وغاو[1].

هذا ويذكر السعدي أن مساكن أهل تمبكتو في بداية الأمر كانت عبارة عن زريبات من الأشواك وبيوت الاخشاش ثم تحولوا من الزريبات إلى الصناصن ثم إلى بناء الحيوط أسوارا قصارا بحيث من يقف في خارجها يرى ما بداخلها، ثم ما لبث هؤلاء أن بنوا أول مسجد سموه بمسجد الجامع[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الجانب الاقتصادي هو سبب بزوغ نجم مدينة تمبوكتو، فماهي ابرز النشاطات الاقتصادية التي ساهمت في ازدهار مدينة تمبوكتو.

– الحياة الاقتصادية في مدينة تمبكتو:

بدأ الاتصال بين شمال وجنوب الصحراء منذ زمن، بيد أن الصحراء لم تكن في يوم حاجزا بينهما، وكما يقول الكثير من أهل المدينة أن الماء متوفر في الصحراء ويوجد على مسيرة يومين أو ثلاثة فكثرة وجود الآبار في الصحراء، وقربها لبعضها مكنت التجار والمسافرين من التنقل بين المنطقتين جانبي الصحراء وغيرها، وليست أمراً عسيراً مثلما يتصوره البعض بأن تلك الأرض مجرد فيافي لا تتوفر فيها جوانب الأمن المطلوبة، من مياه وغيرها وهذا رغم حقيقة معطيات الدراسات الصحراوية، التي تقرر بأنها قد اتصفت بالأمن، ووفرة المياه الباطنية وقربها من سطح الأرض وأن أعماقها في اغلب الأحيان لا تتعدى عدة أمتار كما أن بها عيونا ومياها جارية على سطح الأرض، ويؤكد ابن خلدون هو الآخر في تاريخه وجود آبار ارتوازية بالصحراء، الأمر الذي سهل ذلك الاتصال بين جانبي الصحراء، وانتعاش حركة السفر والتجارة بينهما بسرعة، مما أدى إلى ظهور مراكز تجارية متعددة على طرق القوافل الممتدة عبر الصحراء[3]، وتعد مدينة تمبكتو أهم تلك المراكز التجارية بسبب ما تميزت به من موقع جغرافي ممتاز في منحى نهر النيجر فأصبحت بذلك

1)- نياني ج ت: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع لليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، لبنان، 1988م، ص214.
2)- السعدي: المرجع السابق، ص22.
3)- هادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص:270 - 271.

أقرب محطة للقوافل التجارية القادمة من الشمال، فقامت بدور سوق مبادلات تجارية رائجة من خلال تجارة المارة التي تعرض منتجات السودان من الذهب والملح وغيرها لتجار الشمال، وتستقبل في الوقت نفسه سلع الشمال لتصديرها إلى مناطق السودان الداخلية[1].

وقد وهبها موقعها الجغرافي المتوسط، ومكانتها الإستراتيجية أهمية كبيرة في ترويج الثقافة الإسلامية واللغة العربية التي غدت أداة التفاهم بين مختلف الشعوب الوافدة عليها، فلقد واكب ازدهارها الاقتصادي مجموعة من العناصر نذكر أهمها:

التجارة:

التجارة هي أهم مصادر اقتصاد تمبكتو التي كانت في الأساس سوقا إستراتيجية هامة لتبادل البضائع المتنوعة، بين الشمال والجنوب، و الشرق والغرب،- أي المناطق السودانية الأخرى المجاورة لها - وتزاحم فيها التجار الوافدين إليها من بلاد المغرب العربي ومن غاو وغد وجنى أراوان، وغيرها من مدن السودان الغربي التي عجت سوقها بالبضائع الأوربية التي كان التجار من الشمال يجلبونها إليها، إضافة إلى البضائع المحلية في تلك المدن، الأمر الذي دفع بعجلة تطور الاستثمار الاقتصادي فيها إلى درجة استحداث بعض النظم الاقتصادية المتقدمة[2].

ونجد من تلك النظم الاقتصادية المتعارف عليها خطابات الضمان التي كانت بمثابة الصكوك المصرفية اليوم، وعقود البيع والشراء التي راعت أحكام الشريعة الإسلامية[3]. أما طرق التبادل التجاري فكانت تجرى غالبا في تمبكتو عن طريق المقايضة، واستخدام الودع، في معظم المعاملات البسيطة، واستخدموا الذهب غير المصوغ في الصفقات المهمة وجدير بالذكر أن تجارة المرور الرحل أفادوا حكام وقضاة مدينة تمبكتو الذين تعاقبوا على حكم المدينة من خلال الحصول على ضرائب كانت تدفع إليهم عينا أو نقدا من قبل القوافل التجارية، والتي كانت تدخلها أو تغادرها.

1)- الوزان حسن ابن محمد: وصف إفريقيا.ترجمة من الفرنسية،د.محمد حجي،د.محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ج2،ط1، ص: 165 - 166.

2)- اليونسكو، ص215.

3)- عبد السلام محمد عبد السلام الككلي: (تمبكتو) مجلة التاريخ، الدار السودانية للطبع، العدد6، 2000،ص7.

وكان لذلك بالغ الأثر في اكتظاظ خزائن الحكام الذين خضعت لهم سياسيا، وأما بالنسبة للتجار الذين كانوا يقومون بهذا العمل المهم في تمبكتو فهم وفق أصولهم صنفان : تجار شمال أفريقيا، والتجار السودانيون.

فتجار الشمال كانوا يؤلفون قوافل كبيرة خاصة بالتجارة الصحراوية، وأبرزهم تجار العرب من غدامس، وفزان، والبرابيش، من المغرب الأقصى وكانوا يحتكرون تجارة الملح، حيث كانت طرق القوافل التجارية التي تربط المنطقتين زاخرة بحركة التجارة المستمرة ممثلة في البضائع الوافدة من الأسواق الأوربية عبر البحر المتوسط، وكان تجار فزان وطرابلس وأوجله وبرقه هم حملة هذه البضائع إلى السودان الغربي، ونشير هنا إلى شهرة المصنوعات الغدامسية لاسيما الجلدية منها لدرجة مكنت التجار العرب الليبيين من غدامس تأسيس حي خاص بهم في جنوب شرق تمبكتو عرف بحي الغدامسيين، الذي كان على درجة كبيرة من الأناقة وحسن البناء والتناسق في شوارعه، ولعل مرد ذلك إلى مكانه وثراء التجار الليبيين، نظرا لما كانت التجارة تمثله من قيمة بوأت أصحابها مكانةً اجتماعية مرموقة، لذا ازدادت ثروتهم، وكثر بناؤهم، وعرفوا لدى العامة والخاصة بالثراء.[1]

بالنسبة لأسواق مدينة تمبكتو فقد كانت في ماضيها الزاهر مقارنة بهذا الحاضر من أرقى وأروع الأسواق التجارية وأهمها في تلك الفترة سوق باجندى، وهى سوق كبيرة تقع في وسط المدينة وسوق يوبوكيني وهى سوق متوسطة في غرب حي سنكورى بسوق الحي الشعبي كابا وغيرها.

وإذا كانت الأسواق بهذا الشكل من التنوع فمن الطبيعي جدا أن تكون زاخرة بسلع كثيرة ومتنوعة وعلى الرغم من كون مدينة تمبكتو مدينة ثقافية علمية عظيمة في المنطقة، إلا أن سبب عظمتها بالدرجة الأولى يكمن في كونها مدينة تجارية مرموقة رائعة الصيت، حتى طغت على بلاد أوروبا من ناحية، فهي تقوم بدور الوسيط بين تجارتي الشمال والجنوب -كما أسلفنا- وأوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط،

1)- الوزان حسن بن محمد: المرجع السابق، ص: 166.

وبذلك غدت مستودعاً لسلع عديدة ومتنوعة مصدرة ومستوردة، فقد وصلت إلى مدينة تمبكتو أنواع متعددة من السلع بعضها من الشمال الإفريقي وبعضها الآخر من البحر المتوسط عبر الشمال وهذه السلع تتنوع بين العلمية والتجارية والغذائية نذكر منها على سبيل المثال لا للحصر الكتب والمخطوطات العلمية. حيث كانت الكتب من السلع الرائجة في تمبكتو وأبرزها تداولا حيت يجني منها التجار القائمون على بيعها والوراقون أرباحا طائلة تفوق أرباح مختلف المعروضات الأخرى في المدينة، ذلك بسبب الإقبال الشديد من أهالي المدينة على اقتنائها، هذا وقد عرفت تمبكتو مختلف أصناف المؤلفات العلمية في فنون التراث الإسلامي وآداب اللغة العربية المعروفة آنذاك في الوطن العربي والعالم الإسلامي، حيث كانت الكتب والمخطوطات الكثيرة تأتى إلى تمبكتو من الشمال الإفريقي وتباع بأسعار مرتفعة تفوق أسعار كافة السلع الأخرى، الأمر الذي يوضح لنا بجلاء مدى مكانة العلم والثقافة وما يحضيان به من قبول واحترام، مما جعل الكتب والمخطوطات أهم السلع قيمة وغلاء ومن أكثرها رواجاً في المدينة.[1]

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه بعد كل هذا هو ما هي الأسباب التي أدت إلى هذا النمو الكبير في هذه المدينة الإفريقية المرموقة؟ وللإجابة عن هذا السؤال نود أن نشير هنا إلى عوامل قد ساهمت في ازدهار التجارة في تمبكتو، منها عوامل داخليه وأخرى خارجية، نبدأ بالعوامل الداخلية من موقع المدينة الجغرافي حيث تميزت مدينة تمبكتو بموقع استراتيجي الأمر الذي جعلها ملتقى طرق الملاحة النهرية القادمة من جنى، وغاو، وطرق قوافل التجارة الصحراوية من الشمال الإفريقي وأوروبا عبر الشمال، التي كانت تمبكتو محطتها الأخيرة. وذلك لأن سهول المناطق الجنوبية لتمبكتو لم تكن تلائم الجمال التي كانت صاحبة الفضل في جعل طرق القوافل شرايين منتظمة للتجارة، ومن العوامل الداخلية الأخرى، استتباب الأمن والعدل[2].

1)- نيابي ج ت: المرجع السابق، ص: 219، 220.
2)- عبد السلام محمد عبد السلام الككلي: تمبوكتو، ص 8.

فقد شهدت مدينة تمبكتو حالة من الأمن والعدل بفضل عناية واهتمام السلطات المتعاقبة على حكمها سواء في عهد الأساكى لمملكة سنغاي أو في فترة حكام مملكة مالي الإسلامية ويحدثنا الرحالة المغربي الكبير ابن بطوطة الذي زار تمبكتو سنة (754هـ - 1353م) عن استقرار الأمن والعدل في تمبكتو وما كان يتمتع به السكان من الأمانة وذلك في قوله «فمن أفعالهم الحسنة قلّة الظلم فهم أبعد عنه، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيئ منه»، ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر ولا المقيم من سارق ولا غاصب ومنها عدم التعرض لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كانت القناطير المقنطرة. ويصف السعدي رخاء تمبكتو والأمن الذين شملا كافة المنطقة قائلا. «فوجدت هذه الحملة (أي الجيش المغربي) أراضي السودان الغربي يومئذ من أعظم أرض الله تعالى، نعمة، ورفاهية، وأمناً، وعافية في كل جهة ومكان وقد كان من نتائج الأمن والعدل والأمانة السائدة أن ارتاد التجار مدينة تمبكتو شمالا وجنوباً بسلعهم المختلفة، بحريّة نادرة واطمئنان تام».

وهناك عامل قد ساعد على استقرار الأمن والعدل في أسواق تمبكتو هو توحيد الأوزان والمكاييل والمقاييس، فقد كانت لأسواق تمبكتو مقاييس ومكاييل وأوزان ثابتة متعارف عليها، وقد وحدها ووضع ضوابطها اسكيا محمد الكبير، إضافة إلى ذلك أسس لها شرطة تقوم عليها وتسهر على رعايتها، وبذلك أصبح لها نظام سليم يتم التبادل والتعامل بواسطتها في جميع أنحاء البلاد.

أما العوامل الخارجية التي ساهمت في الأمن والاستقرار في مدينة تمبكتو نذكر منها هجرة العرب وبعض أهل السودان إلى هذه المدينة التي تأثرت بمعارف حيث أتى كل مهاجر بمعارف مختلفة جديدة من بلاده ساهمت في إعطاء ثقافة جديدة لأهل مدينة تمبكتو ورواج تجارة البحر المتوسط والمبادلة المباشرة والودع.[1]

انتشار اللغة العربية في مدينة تمبوكتو

اللّغة العربية في تمبكتو لها وقع كبير في المجتمع فهي لغة العلم والأدب والفكر مما أتاح لطلابها، اكتساب درجة من العلم والتهذيب، وإذا كانت مدينة تمبكتو قد

1)- المرجع نفسه، ص9.

عرفت نهضة علمية زاهرة، فبفضل الإسلام ولغته العربية، أتاح لها مبادلات ثقافية مبنية على الثقة، وسبب في فتح أبوابها للأدباء واللغويين والفنانين اللذين كانوا على ضفاف البحر الأبيض المتوسط الأمر الذي كان له دور رئيس في تنشيط حركة الإقبال على اللغة العربية واهتمام الأفارقة عامة، والتمبكتيين منهم خاصة بلغتهم الإسلامية الغراء – لغة القرآن –، وتقديرهم إياها، وذلك لأنهم فهموا حق الفهم أن العربية هي: القرآن يعني – لا قرآن من دون العربية – ذلك أن القرآن الكريم قد بلور لديهم معاني الإيمان بأن اللغة العربية، لغة المعرفة الحقة، والحكمة والجمال، طالما نزل بها الكتاب الكريم[1].

وهكذا غدت مدينة تمبكتو مركزا لإشعاع علمي بعيد المدى في بلد السودان – جنوب الصحراء – واشتهرت علميا برواج تجارة الكتب والمخطوطات فيها، فكانت تحمل إليها الكتب من مختلف جهات العالم الإسلامي ثم تنسخ وتباع في أسواقها، وتلقى إقبالاً منقطع النضير لدى مختلف أصناف المجتمع التمبكتي، وكان العلماء يقبلون في شغف بالغ على إنشاء المجالس العلمية والمكتبات الخاصة، حتى إن منهم من بلغت كتبه الآلاف كأحمد بابا مثلا فأصبح لها – تمبكتو – في عامة مناطق السودان الغربي التأثير الثقافي والعلمي[2].

فمؤلفات علماء تمبكتو احتلت مركزا متقدما في المقررات الدراسية وكانت الشروح والكتب الدراسية في بلاد هوسا وغيرها في السودان الغربي، في الغالب من تأليف علماء تمبكتو،و لم تقتصر أعمالهم على المنطقة فحسب بل حظيت بقبول ورضا في مدن المغرب والمشرق العربي، التي تعد أكثر علماً وتأليفا في ذلك الوقت مثل جامعة فاس التي جعلت الفتوح القيومية شرح الاجرومية لأحمد بن أندغ وهو من علماء تمبكتو ضمن الكتب المقررة. ودخول اللغة العربية إلى تمبكتو كان عبر علاقات تجارية قديمة بين المناطق التي كان العرب يطلقون عليها بلاد المغرب وبين المناطق

1)- أبوبكر إسماعيل ميفار: الحركة العلمية والإصلاحية في السودان فيما بين القرنين السابع والحادي عشر الهجري: مؤسسة العصر الحديث، القاهرة، 1987، ص133.

2)- زبادية عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الإسقيين، 1493 - 1591، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر (دت)، ص138.

الواقعة جنوب الصحراء، قبل تأسيس مدينة تمبكتو ودخول الإسلام إلى المنطقة، الأمر الذي يؤكد وصول اللغة العربية إلى البلاد على أيدي التجار العرب قبل ازدهار تمبكتو كمركز ثقافي، خاصة أن ازدهارها كان بسبب التقاء التجار العرب الذين كانوا يأتون من الشمال، والتجار السودانيين القادمين من الجنوب فتحولت بذلك إلى سوق تجاري كبير للتبادل التجاري بين الطرفين[1].

يقول الدكتور سليمان عبد الغني المالكي «ومما يجب الإشارة إليه في هذا الصدد أن التجار من جنوب الجزيرة العربية والذين يمثلون رأس الرمح كانوا أقدم من وطئ الساحل من أفريقيا حيث كان قدومهم إلى هذه المنطقة لغرض التجارة والاستيطان – الهجرة» ثم يضيف قائلاً: «ومع قلة عدد هؤلاء التجار إلا أنه بمضي الزمن بدأ هناك تمازج بالسكان المحليين حيث تزوجوا بنساء القبائل، وأقاموا عدة مراكز تجارية، وظل هذا الاتصال التجاري ينمو ويتسع في مراحل تاريخية متعددة، وبهذا يمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أن اللغة العربية عرفت طريقها إلى أفريقيا جنوب الصحراء منذ مدة طويلة. وأن العلاقات التجارية هي التي أوصلت البذور الأولى إلى المنطقة، وأنّ هذه العلاقات التجارية بين العرب وسكان غرب إفريقيا التي بدأت في القرن السابع الميلادي وازدهرت بعد القرن الحادي عشر الهجري وهي- فيما أعتقد – البذور الأولى للغة العربية في أفريقيا وحسب أراء كثير من الباحثين في هذا الموضوع، ولقد ظلت هذه العلاقة بطريقة سلمية طيبة منذ ذلك التاريخ إلى أن تمت بانتشار الإسلام في القارة الإفريقية»[2].

إن اللغة العربية بصفتها لغة الدين الإسلامي، تغلغلت في أعماق المجتمع التمبكتي كله، بسبب التأثير الإسلامي القوي الذي شمل سائر الحياة العامة في مدينة تمبكتو، لدرجة أنها اتخذت لغة رسمية، فغدت لغة التخاطب والتجارة في ربوع المدينة والأقاليم المجاورة لها، خاصة عندما استقرت القبائل العربية مع مرور الزمن في تمبكتو وكونت إحياء خاصة بها[3].

1)- المرجع نفسه: ص 138.
2)- أبوبكر إسماعيل ميفار: المرجع السابق، ص130.
3)- المرجع نفسه، ص:131.

هذا بالإضافة إلى الإشعاع العلمي الكبير الذي شهدته المدينة، مما سمح لأهلها أن ينهلوا من معين اللغة العربية ويتعمقوا في دراستها، ويستعملوها لغة حية في مختلف مجالات حياتهم، الأمر الذي مكن اللغة العربية من التأثير الفاعل في لغات تمبكتو المحلية، وأدى بأهلها إلى التخلي عن بعض مفردات لغتهم الأصلية وإحلال مفردات عربية محلها، لأنهم حقيقة لم يعودوا يعتبرون اللغة العربية لغة خاصة بالعرب فحسب بل يعتبرونها لغة ثانية لهم لتسيير أمورهم الدنيوية، إضافة إلى كونها لغة الإسلام الذي جاء للناس كافة، يقول الدكتور محي الدين صابر، «إن اللغة العربية قد تعاملت في كل أطوار علاقاتها مع اللغات في مدينة تمبكتو تعاملاً نديا، وألفت معها حضارة مشتركة و لم تحاول أن تفقرها أو تحاصرها في مجال محدود، وأصبحت لغة علم وفكر وأصبح لها تراث باق وخالد وذلك عبر مراحل مختلفة من التاريخ، وبهذا ساعدت اللغة العربية لغات السودان المحلية في الانفتاح على العالم، الذي ضل مغلقاً أمامها فقد أخذت العربية من هذه اللغات وأعطتها، أخذت منها بعض المفردات والمعاني، وترجمتها إلى العربية وتركت العربية بصمات واضحة في هذه اللغات المحلية في العديد من الجوانب.[1]

هكذا نجد انتشار اللغة العربية في أفريقيا جنوب الصحراء بشكل عام وفي مدينة تمبكتو بشكل خاص، وهي ليست لغة غازية أو أجنبية كما روج بعض المستشرقين ومن والاهم من السودانيين، وإنما هي لغة حضارية جاءت لتمد لغات إفريقيا بوسائل الحياة والبقاء، وتربطها ببعضها البعض وتخلق جسراً متيناً لتبادل التفاهم بين القبائل الإفريقية المتباينة، وهي لذلك أولى وأجدر بأن تكون لغة التخاطب المشترك لعامة القارة الإفريقية، بدل من الانجليزية والفرنسية اللتين جزأتا القارة عامة، وقطعت أوصالها، ومزقت وحدة شعوب كانت متحدة عقائدياَ وثقافياَ ولغوياَ إلى أجزاء هشة.

وبما أن اللغة العربية أرقى من تلك اللغات المحلية فمن الطبيعي أن تكون هي اللغة المستعملة بين التجار في ذلك الزمن، ومن الطبيعي أيضا أن يلتقطها التجار والأهالي من إخوانهم العرب وينشروها بينهم، وهذا أمر واقعي نراه في أسواقهم إلى يومنا هذا، وهذه العلاقة التجارية القوية بين الشمال وجنوب الصحراء منذ زمن

1)- زبادية عبد القادر: مملكة سنغاي في عهد الإسقيين، ص141.

بعيد موغل في القدم، هي التي وضعت حجر الأساس لازدهار المراكز التجارية الثقافية الهامة في المنطقة، والتي تعد تمبكتو أشهرها على الإطلاق، بسبب ما تميزت به من موقع استراتيجي يمثل حلقة اتصال للقوافل الآتية من الشمال بتجار القبائل السودانية القادمين من الشرق والغرب والجنوب، مما جعلها تنمو وتزدهر بسرعة فائقة، حتى أنها أصبحت في مدة قصيرة مدينة ثقافية حضارية، بل أصبحت المدينة الأولى في السودان كلها شهرة وعظمة، لاجتماع الفقهاء والعلماء فيها من كل صوب وإذا كانت هذه هي حالة المدينة فمن الطبيعي جدا أن تدخلها اللغة العربية من يوم نشأتها وازدهارها إلى أن أصبحت نقطة التقاء تجاري في بلاد جنوب الصحراء. وساهمت الهجرات العربية في ترسيخها أيما مساهمة فيما بعد، فقد تحدث عبد الرحمن السعدي عن العلماء والصالحين وذوي الأموال الذين هاجروا إلى تمبكتو وسكنوا فيها من مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي[1].

الدور الحضاري والثقافي لمدينة تمبوكتو مابين القرن الرابع عشر والسادس عشر

أ/ في عهد مملكة مالي 1225 – 1450

خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر ميلادي أصبحت تمبوكتو تحت سيطرة مملكة مالي الإسلامية التي تأست في عام 1225 على يد سندياتا كايتا من شعب الماندينغ وذلك على أنقاض انهيار مملكة غانا الوثنية التي انهارت عام 1076 على يد المرابطين، وعرفت مملكة مالي اتساعا كبيرا في غرب إفريقيا شملت كامل منطقة مالي اليوم السنغال وجزء من غينيا وشمال نيجيريا[2].

وقد حكم سندياتا كايتا مالي إلى غاية عام 1255م، وأسرة كايتا من أعرق الأسر لدى قبائل الماندينغ كان لها الفضل في تأسيس امبراطورية غانا الوثنية خلال القرن الثالث الميلادي كما أسست مرة أخرى مملكة مالي الإسلامية، وبعد وفاة سندياتا تولى الحكم في مالي ابنه منسا ولي أو علي الذي حكم مالي هو الآخر قرابة 25 سنة، ثم جاء من بعده حوالي سبع ملوك ضعاف إلى أن تولى السلطة فيها الملك

1)-أبوبكر إسماعيل ميفار: المرجع السابق، ص132.

2)- جوان جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء،ترجمة مختار السويفي، دار الكتاب المصري، ص71.

منسا موسى عام 1312م، والذي عرفت مالي أثناء فترة حكمه أزهى عصورها[1]، تخللتها رحلته إلى الحج عام 1325م والتي تعرف بأعضم رحلة حج في التاريخ أنفق فيها ما يزيد على 100 حمل بعير محملة بالذهب، وهو دليل قاطع على أنّ مملكة مالي كانت تعرف ثراء فاحشاً وتوفرا لثروة الذهب بشكل كبير، حيث أخذت رحلته طريق تمبوكتو مرورا بتوات ثم بلاد غدامس نحو القاهرة إلى غاية بلاد الحجاز ودامت رحلته عامين، وعند عودته تفرغ لمجال العلم والثقافة خاصة في مدينة تمبوكتو التي أولاها اهتماما كبيرا.

إن من أهم الأعمال التي قام بها منسا موسى أثناء عودته من رحلة الحج هو اصطحابه للمهندس المعماري الليبي «عبد الله الكومي الموحدي الغدامسي» الذي بنى له الجامع الكبير حيث يقول السعدي «أما الجامع الكبير فالسلطان الحاج منسا موسى هو الذي بناه»، يستشف من كلامه أن هناك مسجد أو على الأقل مسجد غير كبير سبق هذا المسجد الكبير – جنغرى بير – هذا وقد جدد بناء هذا المسجد الجامع عدة مرات أهمها ما قام به قاضي تمبكتو العاقب بن عمر وكل هؤلاء المذكورين أعلام وفقهاء من الشمال الأفريقي، كانوا يمارسون التدريس من النوع العالي إلى جانب الفتوى وممارسة الوعظ والإرشاد، هذا ولقد كان هذا الجامع الكبير محط تقدير واحترام بالغين لدى المجتمع التمبكتي، مما حدا بعضهم إلى القول بأن عمارة تمبكتو في عمارة صومعة الجامع الكبير، لا يفرط أهلها فيها، ولا يزال أهل تمبكتو على هذه العادة، حيث يعتبرونه رمز اتحاد، ووحدة مجتمعه، يجتمع فيه التمبكتيون من كل الجهات لأداء صلاة الجمعة، الشيء الذي يعكس بجلاء مدى ترابط مسلمي هذه المدينة الإسلامية، وتمسكهم بعامل الوحدة ويعد هذا المسجد الجامع بما يتميز به من روعة هندسية متقنة، وقيمة معمارية عالية، من أبرز معالم الحضارة الإسلامية القائمة اليوم في تمبكتو.

وإلى جانب الجامع الكبير كان في مدينة تمبوكتو جامع سنكوري الذي يعتبر من أعظم المؤسسات التعليمية التي نهضت بالتعليم العربي الإسلامي إلى أعلى المستويات في بلاد السودان الغربي كله، وقد تمتع بشهرة كبيرة جدا، وشهرة أساتذته تجاوزت

1- Kizerbo : histoire de l'afrique noire d'hier à demain، hatier، paris، 1972، p141).

حدوده لتصل إلى مشارف الشمال الأفريقي والمشرق الإسلامي، حتى دُعي بعضهم للتدريس في جامعة الأزهر وفأس[1].

وقيل إن أول من بناه سيدة ثرية من قبيلة الأغلال، يقول السعدي: «وأما مسجد سنكورى فقد بنته امرأة واحدة إغلالية، ذات مال كثير في أعمال البر،ثم جدده القاضي العاقب نهاية القرن العاشر الهجري يقول السعدي في إشارة إلى ذلك....» وفى ذلك الخميس الثاني عشر من المحرم سنة (ست) وثمانين بعد التسعمائة، شرع القاضي العاقب في تجديد بناء سنكورى، وفى عهد الملك أسيكا داود، تم توسيعه وإكمال ما تبقى من بنايته، وذلك نظرا لازدياد الطلاب الوافدين إليه بكثرة، واتساع حلقات العلم فيه، فنال شهرة ضاهت شهرة بعض أبرز الجامعات الكبرى في العالم الإسلامي في تلك الحقبة بل في العالم أجمع، وكان التعليم فيه على مستوى عال جدا، وتدرس فيها المواد على نحو تخصصي تتناول بتفصيلات واسعة، وتناقش المسائل على مستوى أمهات المؤلفات، ولا يدرس فيه إلا كبار المشايخ المتميزون في فنون المعرفة المختلفة، المحيطون بكل الجزيئات في المواد التي يدرسونها، وهو يشبه الأزهر في القاهرة، والقرويين في فأس، والزيتونة في تونس وغيرها في مواكبة التيارات العلمية، وتنقل الطلاب والعلماء. وأما فيما يتعلق بإمامة هذا المسجد فكانت بين أسرتين علميتين بتمبكتو: أسرة اقيت، وأسرة أندغم محمد، ومن أشهر أئمة الأسرتين: الولي الصالح الفقيه محمد بن عمر بن محمد اقيت، من الأسرة الأولى، والإمام أندغم محمد بن الفقيه المختار النحوي وغيرهم، وهكذا كانت سنكورى منارة من منارات العلم والعبادة تشع بنورها على أرجاء المعمورة. وكل هذه المساجد وغيرها قامت بدور هام في تنشيط الحركة العلمية وكانت مؤسسات يتم فيها التدريس وتعقد فيها الحلقات العلمية والمناقشات الفقهية واللغوية بمدينة تمبكتو، فأدت بذلك رسالتها، كمراكز للعبادة، ومنابر للعلماء الذين كانوا يلقون الدروس فيها لتعليم الطلاب،الذين كانوا محيطين بهم بانتظام،كما كانت تلك المساجد خير الأماكن التي انطلقت منها اللبنات الأولية لحركة تأليف علماء وفقهاء

1)- زبادية عبد القادر، المرجع السابق، ص:145.

تمبكتو،ونسخ المخطوطات النفيسة،مما يؤكد ما أشرنا إليه آنفا إن رحابها لم تكن لأداء العبادات فحسب، بل كانت إلى جانب التعليم والتأليف أيضا.

وقد ألحق ببعض هذه المساجد غرف لاستضافة الطلاب الغرباء الوافدين إلى المدينة من المناطق المجاورة خارج تمبكتو، الذين لا يملكون من الزاد إلا الصبر والجلد والقدرة على مكابدة التعب والمشقة طلبا للعلم وتفقها في الدين، برعاية أهالي مدينة تمبكتو لهؤلاء الطلاب الوافدين إليها.

هذا وإلى جانب المساجد لعبت المكتبات دورا هاما في تعليم وتثقيف طلبة العلم في المنطقة وباقي المناطق الأخرى، حيث بانتشار الإسلام واللغة العربية في أرجاء السودان الغربي وبخاصة تمبكتو بشكل كبير ، تجلت حاجة الناس إلى الكتاب أكثر فأكثر من كل حاجاتهم الأخرى، ولتلبية هذه الحاجة الماسة كان من الضروري إيجاد الكتب التي هي عماد الثقافة والمعرفة، وذلك باستيرادها أحيانا، وتأليفها أحيانا أخرى وترتب على ذلك كثرة الكتب وبالتالي ضرورة وجود مكتبات لها، ونشير هنا إلى أهم المكتبات التي ساهمت في انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في تمبكتو.

1ــ مكتبة احمد بابا التمبكتي: هي مكتبة غنية بمئات المجلدات من أمهات الكتب النفيسة، وصاحبها احمد بابا أولى اهتماماً خاصاً بالعلوم الشرعية، وإقبالا عظيما على جمع الكتب والمخطوطات، فأنشأ بذلك مكتبة علمية عريقة احتوت على مجموعة كبيرة من أنفس المصنفات وأهمها وأكثرها شيوعا.

2ــ مكتبة آل اقيت: مؤسس هذه المكتبة العلمية الخاصة هو احمد بن احمد بن عمر بن محمد اقيت، الذي اشتهر بالعلم وجمع الكتب النفيسة، وكانت بذلك مكتبة غنية لجأ إليها طلبة العلم للأخذ من معينها ، وقد عرفت بخدمتها العلمية المتواصلة لطلبة العلم في مجال البحث والدراسة وهكذا كانت هذه المكتبة في طليعة مكتبات تمبكتو الخاصة.
3- مكتبة الحاج احمد هي مكتبة غنية بأمهات الكتب المتداولة والمشهورة في شتى فنون المعرفة أسسها أحمد بن عمر بن محمد التمبكتي اشتهر بالحاج احمد الذي سميت المكتبة باسمه وقد عرف الحاج احمد بالعلم والاعتناء بطلبته.

وهذه المكتبات الخاصة التي ذكرناها هي في الواقع مجرد نماذج لعشرات غيرها لم نستطيع إيرادها، وذلك لان محاولة حصرها يطلب منا وقتاً كبيراً ولا يتسع المقام لذكر تفاصيلها.

ب/ في عهد مملكة سنغاي (القرن السادس عشر):

بعد بروز الضعف في مملكة مالي في نهاية النصف الثاني للقرن الخامس عشر بدأت بوادر مملكة أخرى تبرز على أنقاضها تمثلت في مملكة السنغاي التي كانت تحت لواء مملكة مالي منذ عام 1270م، وبعد تراجع مكانة مالي وجد سني علي بر الذي ينتمي إلى أسرة ضياء الفرصة لإعادة مجد سلطان مدينة سنغاي فكان تأسيس المملكة على يديه عام 1464م[1] عمل مباشرة بعدها على توسيع رقعته في الشمال والجنوب حيث ضم جنى في الجنوب وبادر إلى ضم تمبوكتو شمالا والتي أصبحت تحت نفوذه عام 1468[2]، وفي عام 1493م توفي الملك منسا موسى في ظروف غامضة يرجح أغلب المؤرخين وفاته إلى مؤامرة حاكها ضده الاسقيا الحاج محمد الكبير من خلال فتوى أصدرها الشيخ المغيلي التلمساني مفادها « أن سني علي وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره لا شك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض.....».

وعليه فإنه مباشرة بعد وفاته تولى الأسقيا الحاج محمد الكبير الحكم في سنغاي وأعطى للشيخ المغيلي التلمساني مكانة هامة في حكمه حيث أصبح قاضيا عنده، كما قام هو الآخر برحلة حج عام 1494م كانت تعرف نفس الأبهة والتفاخر مقارنة برحلة ملك مالي «منسا موسى»، وعند عودته تفرغ لمجال العلم والثقافة حيث عرفت مدينة تمبكتو مرة أخرى أزهى عصورها خلال القرن السادس عشر.

لقد كان القرن السادس عشر قد قيض خلاله لمدينة تمبوكتو أن تصبح محطة القوافل الأولى في كل بلاد السودان، فسكنها تجار كثر، وقصدها جمع كبير من العلماء والطلاب، مما بوأها مكانة المدينة الأولى للعلم والثقافة في السودان

1)- المرجع نفسه، ص156.
2)- جوان جوزيف، المرجع السابق،ص:38.

الغربي، فمن مظاهر الازدهار بها أن تعداد سكانها أصبح يزيد عن خمسة وثلاثين ألف ساكن، فقد انتظمت شوارعها وأحيطت المدينة بسور أما المنازل فقد ازدانت بنسبة كبيرة، كما احتوت على ثلاث مساجد كبرى، وأخذت أسواقها طابعها الإسلامي[1].

ورأت تمبوكتو في القرن السادس عشر نشاطا فيما يختص بنشاط التدريس وقد ضمت مدارسها العديد من الطلاب والأساتذة كما رأت لأول مرة في تاريخ السودان الغربي اتساع التعليم الجامعي وتوارد عليه في تلك الأثناء عدد من الأساتذة من بلاد المغرب فساهموا في تنشيط التعليم وتعميقه. وفي تلك الفترة بدأ العلماء السودانيون في الإنتاج فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات الهامة التي ألفت خارج السودان، وقد صاحب ذلك انتظام مراحل التعليم وأخذه طابعا عاما[2].

لقد كان التعليم في تمبوكتو خلال القرن السادس عشر يقسم إلى ابتدائي وثانوي وعالي، وكانت أمكنة التدريس الأساسية هي المساجد والجوامع، وكان من أشهرها وأكثرها اكتظاظا بجموع الطلبة جامع سنكورى[3]، وفيما يخص طريقة التدريس فقد كانت المناقشة بين الأستاذ وطلابه جاريا بها العمل، أما التواضع ولين الجانب للطلبة، فقد كان من شيم الأساتذة اللاّمعين في تمبوكتو في تلك الفترة وكان صبر الأستاذ على تفهيم طلبته يعتبره الناس من صفات الأساتذة الناجحين في مهنتهم[4].

وإلى جانب ذلك عرف المدرسون والطلاب في تمبوكتو خلال القرن السادس عشر نظام الشهادات كما عرفته البلاد الإسلامية الأخرى، وقد كانت الشهادات تمنح فردية بمعنى أن الطالب يستطيع الحصول على شهادة من الأستاذ في المواد التي يتقنها هذا الأخير ويتعاطى تدريسها[5].

1)- Ki zerbo : op cit، p :144.
2)- زبادية عبد القادر: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي: المرجع السابق، ص: 60 – 61.
3)- السعدي، مرجع سابق، ص22.
4)- أصبح جامع سنكوري في تلك الفترة بمثابة جامعة في بلاد السودان الغربي.
5)- السعدي، المرجع السابق، ص:46.

كما كان توارد الأساتذة من بلاد المغرب العربي إلى تمبوكتو، فقد أخذ شكلا واسعا خلال القرن السادس عشر، حيث يذكر محمود كعت وجود كثير من العلماء جاؤوا من توات وأقاموا في تمبوكتو خلال ذلك القرن[1].

وفيما يخص الحركة العلمية والفكرية فقد عرفت مدينة تومبوكتو ازدهارا لم تعرفه من قبل وبرز على إثر ذلك العديد من الفقهاء والعلماء والمؤخرين كان أبرزهم أحمد بابا التمبوكتي صاحب كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ويذكر المؤرخون أنه ترك أكثر من 700 مجلد بعضها موجود وبعضها مفقود، ومحمود كعت صاحب كتاب تاريخ الفتاش وعبد الرحمان السعدي صاحب كتاب تاريخ السودان، أما في الجانب الفكري فإن الأبحاث كانت نشيطة في علوم الشرح واللغة ولكنها ظلت تتصف بالاستيعاب دون أن تتجاوزه إلى مرحلة الإنتاج[2].

خاتمة

لقد حظيت مدينة تمبوكتو ما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر بما لم تحظ به أي مدينة أخرى في غرب إفريقيا في ذلك الوقت، وكان من أبرز العوامل التي هيأت لها ذلك ازدهار الحركة التعليمية بها في المقام الأول ولذا أخذت نوعا من القداسة في نظر الناس مما حمل حكومة مملكة مالي وبعدها «مملكة السنغاي» في إسناد جميع أمور الناس فيها للقاضي وقد بلغت شهرتها الآفاق فقصدها الطلاب من جميع بلاد السودان كما توارد عليها بعض الطلبة من مراكش أيضا، أما الأساتذة فقد كان عدد كبير من بينهم مغاربة، وبهذه الصورة قامت تلك المدينة بدور كبير فيما يتعلق بنشر الثقافة في سهوب السودان الغربي كله كما أصبحت من بين المراكز الهامة في العالم الإسلامي جميعه وأسفر ذلك على تحضر السكان بها ولين عريكتهم وصلاح حالهم.

1)- زبادية عبد القادر: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، المرجع السابق، ص67.
2)- المرجع السابق، ص: 77 – 78.